

دلائل الإعجاز

واعلم أنه قد يَهْجَسُ في نفس الإنسان شيءٌ يظنُّ من أجله أنه ينبغي أن يكون الحكمُ في المزيَّة التي تحدث بالاستعارة أنها تحدث في المثبت دون الإثبات وذلك أن تقول : إنَّما إذا نظرنا إلى الاستعارة وجدناها إنما كانت أبلغَ من أجل أنها تدلُّ على قوَّة الشَّبه وأزَّه قد تَنَاهَى إلى أن صارَ المشبَّه لا يتميَّزُ عن المشبَّه به في المعنى الذي من أجله شُبِّه به . وإذا كان كذلك كانت المزيَّةُ الحادثةُ بها حادثةً في الشَّبه - وإذا كانت حادثةً في الشَّبه كانت في المثبت دون الإثبات . والجوابُ عن ذلك أن يقالَ إن الاستعارة - لعمري - تقتضي قوَّةَ الشَّبه وكونه بحيث لا يتميَّز المشبَّه عن المشبَّه به ولكن ليس ذاك سبب المزية وذلك لأنه لو كان ذاك سببَ المزية لكان ينبغي إذا جئت به صريحاً فقلت : رأيتُ رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعة وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيتَ أسداً . وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجدَ لكلامك المزيَّة التي تجدها لقولك أسداً . وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون .

فإن قال قائل : إنَّ المزية من أجل أنَّ المساواة تعلم في " رأيتُ أسداً " من طريق المعنى وفي " رأيتُ رجلاً مساوياً للأسد " من طريق اللفظ قيل قد قلنا فيما تقدم إنه محال أن يتغيَّر حالُ المعنى في نفسه بأن يكذَّبَ عنه بمعنى آخر وأنه لا يُتصوَّر أن يَتغيَّر معنى طولِ القامة بأن يكذَّبَ عنه بطول الذِّجَاد ومعنى كثرة القرى بأن يكذَّبَ عنه بكثرة الرماد . وكما أن ذلك لا يُتصور فكذلك لا يتصوَّر أن يتغيَّر معنى مساواة الرجل الأسد في الشجاعة بأن يكذَّبَ عن ذلك ويُدلَّ عليه بأن تجعله أسداً . فأنت الآن إذا نظرتَ إلى قوله - البسيط - :

(فَأَسْبَلَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرِّ جِسِّ وَسَقَّتْ ... وَرَدَا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنْدَابِ
بِالْبَرَدِ) .

فرأيتَه قد أفادَكَ أنَّ الدمعَ كان لا يَحْرِمُ من شَبَهه اللؤلؤ والعينَ من شبه النرجس شيئاً - فلا تحسبنَّ أنَّ الحسنَ الذي تراه والأريحيةَ التي تجدها عنده أنه أفادَكَ ذلك فسحبُ . وذاك أنك تستطيع أن تجيء به صريحاً فتقول : فأسبلتُ دمعاً كَأَنَّه اللؤلؤ عينه من عَيْنِ كَأَنها